تأملات في زمن المقاومة العراقية

محمد أنوار محمد*

■ الأحداث المتتالية في العراق ونتائجها تؤكد وجود ارادتين متصارعتين: ارادة المقاومة وارادة الاحتلال. ولا يمكن للمحلل ان يتجاوز في قراءته للراهن العراقي هذه العلاقة بغض النظر عن التبريرات والأحكام المعيارية التي يمكن ان تحكم مواقفه وآراءه. لقد أفضت متابعة الزمن العراقي الى تكوين بعض الأفكار في لحظتين متترابطتين ومتكاملتين.

1ـ زمن المقاومة (تشرين الأول/اكتوبر 2003):

تكشف الانتشاءات والسلوكات الميدانية الأمريكية في العراق عن تصور قبلي وبدائي للحرب باعتبارها «فرصة مميزة لتأكيد الذات» (بتعبير موريس بلان). تكشف، أيضا، عن سلوكين شاملين ثابتين، في نسج كل المشاريع وكل الأفعال الجيوسياسية (وفقا لفرنسوا طول): ان تحوز لكي تمتلك وأن تمتلك لكي لا تُمتلك.

ان الرغبة في التملك وتأكيد الذات ما كان ليتم التعبير عنهما، بهذه الدرجة، لولا وجود دعامات مادية ومعنوية يرتكز عليها الطموح الأمريكي لتشكيل عالم متجانس تماما. لكن الاختبار العراقي أظهر بشكل ملموس ان الخلل الكبير في التصور الأمريكي يكمن في تدبير ظرفية ما بعد الانتصار العسكري، فـ«تبخر» القوات العراقية يوم 9 نيسان (ابريل) 2003 جعل الولايات المتحدة في وضع لم يكن لديها على ما يبدو أي مخطط لتدبيره أو بتعبير الجنرال أنتوني زيني «لم تكن هناك أية خطة أو آلية لجمع العناصر المشتتة».

عناصر مشتتة في مشهد عراقي مضطرب وغامض: صيغ تسويات غير مجمع حولها، جماعات أصبحت مدركة وواعية أكثر من ذي قبل ربما بتمايزاتها الاثنية والثقافية؛ عجز عن توفير الأمن؛ بطء مجهودات الاعمار؛ فشل عمليات نزع أسلحة العراقيين؛ الفشل في توفير الخدمات؛ الفشل في وضع حد للمقاومة التي تقوم بعمليات وفق مقاربات تبدو بسيطة وغير معتادة، لكنها تغرق أكثر فأكثر الولايات المتحدة في اللايقين والتردد ازاء الوضعية المستقبلية المراد تحقيقها سياسيا.

لقد تبين ان تغيرا أساسيا حدث بعد 9 نيسان (ابريل) 2003، قبل هذا التاريخ كان التحكم الأمريكي في زمنية المعارك واضحا، بعد ذلك، أصبح الزمن الأمريكي ميدانيا زمن انتظار ودفاع، حيث أدركت سلطة الاحتلال ان قرار الهجوم انتقل الى يد المقاومة العراقية، ذلك ما أكده مسؤول في وزارة الدفاع حين صرح بأن «131معركة كان الأمريكيون طرفا فيها، شكلت المعارك التي بدأها الأمريكيون أنفسهم 40 % منها» ويبدو ان هذه النسبة ستنخفض أكثر مع تزايد العمليات اليومية التي تقوم بها المقاومة المتعددة.

ان المقاومة، الآن، تركز على المباغتة. وتهدف الى مفاجأة القوات الأمريكية التي لا تعرف أين ومتى وكيف توجه لها الضربات وبالتالي ارباك نظام اشتغالها واحداث تصدعات في جدارها الرمزي، بهذا الصدد، يعترف مسؤول عسكري أمريكي بأن هدف المقاومة هو «كسر ارادتنا واقناعنا بتبني استراتيجية الانسحاب». في نفس السياق تقريبا، يؤكد مايكل كين المحاضر في علم التخطيط لدى كلية مارشال بجامعة جنوب كاليفورنيا على ان الانتصارات التي يحققها رجال العصابات يمكن ان تلحق الضرر بمصداقية الولايات المتحدة، في الوقت الذي يتسنى حشد التأييد وتجنيد المزيد للانضمام للتمرد.

بالفعل، ففي صراع الارادات هذا، الأساسي بالنسبة للمقاومة هو ترسيخ الاحساس بخيبة الأمل عند سلطة الاحتلال ومن خلالها عند الوسط القراري المركزي في الولايات المتحدة. خيبة أمل تتكرس أكثر مع وجود قناعة غياب استراتيجية للسيطرة على الموقف في عراق المرحلة الراهنة. ان ضرب أهداف مختارة وسهلة الاختراق، الحاق خسائر بشرية بالقوات الأمريكية، ضرب البنيات التحتية الاستراتيجية (أنابيب النفط، محطات الكهرباء، محطات التزود بالوقود، مراكز التفتيش والمراقبة) تهدد حتميا نظام الخصم بالتوقف، باضاعة وقته والزيادة في شكوكه وتكوينه لتمثلات غير واضحة عن الوضع الحقيقي وسير العمليات في المستقبل.

لقد تبين ان استراتيجية الاغراء الدبلوماسي ـ الاقتصادي والبحث عن الدعم المعنوي داخليا عبر النبش في الماضي البعثي ومحاولة «تقنيع» الاحتلال عبر انشاء مجلس حكم على أساس طائفي، لم تجد نفعا. من جهة أخرى، فقرار الجدولة الزمنية لنقل السلطة الى العراقيين (ستة أشهر لصياغة دستور جديد) ليس على ما يبدو الا ترتيبا لربح الوقت وتلطيف الأجواء مع اقتراب الانتخابات الرئاسية في الولايات المتحدة، وهو بالتأكيد لن يوقف العمليات التي تقوم بها المقاومة.

أكثر من ذلك، يبدو غريبا ومثيرا في اللحظة الراهنة الحديث عن مأسسة السلم واقامته (مع من ؟)، فاحداث السلم يفترض وجود خصمين يتواصلان ويعملان سوية على ايجاد تسويات تلطف الحرب وتقيم السلم.

كما ان حفظ السلام يفترض وجوده مسبقا. لقد تنبهت المقاومة الى ذلك وهددت باستهداف القوات الدولية الأخرى القادمة أو الموجودة الى/في العراق لمثل هذه المهمة (أي سلم سيتم حفظه؟).

ان خيار المقاومة يقابل خيار الاحتلال. ويبدو ان المقاومة ستزداد حدة ما دام هناك احتلال في العراق ولو بمباركة دولية.

2ـ زمن المقاومة دائما (تشرين الثاني/نوفمبر 2006):

تراجع الوثوقية الامريكية وتصاعد خيبة أملها من حربها على العراق يستنتجان من تصريح الرئيس جورج بوش بأن «طريق النصر في العراق لن يكون سهلا» (المؤتمر الصحافي 25 أيلول/سبتمبر 2006) وبأن سلامة الولايات المتحدة «تعتمد على نتيجة المعركة في العراق» (خطاب بوش 30 أيلول/سبتمبر 2006). بمعنى آخر، المعركة لم تحسم بعد، ونتيجة النصر ليست مؤكدة تماما، لأن اللايقين لا زال سائدا، ودائرة الفوضى تتوسع، والمقاومة مستمرة، والنتائج مناقضة تماما للأهداف الاستراتيجية والسياسية المعلنة.

ويبدو ان الوضع لم يتغير ولن يتغير لسبب جوهري: وجود المقاومة. كل الحلول التي قد تستبعد المقاومة سيكون مآلها الفشل وستجد الولايات المتحدة نفسها غير قادرة على الاجابة عن «كيف يمكن اقامة السلم؟» اذا لم تجلس مع المقاومة على طاولة المفاوضة، لأن اقامة السلم كما سبق القول تفترض وجود خصمين يعملان على ايجاد صيغ تسويات لوقف الحرب.

المقاومة يمكنها ان تستمر لعقود من الزمن لأن مقاربتها العسكرية بسيطة، وتعتمد على أساليب الحرب المدينية، والأسلحة الخفيفة يمكن الحصول عليها، مع تعدد الموارد السياسية التي تسهل عمليات التجنيد والتعبئة. وقد تتقوى المقاومة أكثر اذا ما توفقت في التنسيق بين مكوناتها ليصبح لها خطاب موحد وثقل أكبر ميدانيا

(وربما هذا ما سيكون اذا صحت أخبار التنسيق المحتمل بين فصائل المقاومة في الأيام القادمة بالأردن).

مؤخرا صرح بوش بأن تغييرا «تكتيكيا» يبدو ضروريا في العراق. هذا «التجديد» يتضمن ثلاثة أهداف: تسريع وتيرة تدريب قوات الأمن العراقية، وتمكينها من القيادة، ونقل مسؤولية الأمن الى «الحكومة العراقية» (البيان المشترك الصادر عن رئيس الولايات المتحدة ورئيس الوزراء العراقي يوم 28 تشرين الأول/اكتوبر 2006).... الأمر واضح جدا: التقليل من دخول القوات الأمريكية في المواجهات والحد من تحركاتها داخل المدن العراقية، وتحصينها في القواعد العسكرية من أجل التقليل من حجم الخسائر البشرية الأمريكية ودفع العراقيين الى حالات جديدة لتجريب أثر الفوضى (ألم يتم تجريبهم بعد 9 نيسان (ابريل) 2003 بغرض مسح الحدود بين حفظ النظام والاحتلال؟).

هذا التغيير التكتيكي ليس في الحقيقة الا محاولة للدفع بالفوضى الى حالاتها القصوى. لقد تم في البداية فهم الفوضى المحلية العراقية التي تعتبر جزءا من فوضى عالمية (بالتعبير المجازي للمنظر الاستراتيجي الفرنسي آلان جوكس «ماريستان يحكمه مجانين») على أنها وضع أو حالة قد تمهد لتأسيس الدولة العراقية الجديدة. وتبعا لهذه الفرضية، فتجريب أثر الفوضى سيفضي الى نوع من اعادة تشكيل البنيات الاجتماعية والمعرفية للعراقيين وادراكهم لواقعهم، وطبعا بناء تمثلات جديدة للدولة العراقية. ويبدو ان التصور الأمريكي ركز في البداية على دولة بسيطة موحدة، لكن مع تطور الأحداث أصبح التفكير في الدولة المركبة الفدرالية مطروحا كحل ممكن للضبط الأمني (سياسة أمنية ترابية).

الواقع العراقي الراهن يقدم ما يكفي من المعطيات للدفع بفرضية ان الفوضى أفضت الى أوضاع غير مرغوبة سياسيا من طرف مهندسيها. فما الذي يجعل الولايات المتحدة رغم ذلك تصر على ترسيخ الفوضى والاقتتال بين العراقيين؟

يبدو ان الهدف من هذا التدبير قصير المدى هو التالي: بدل علاقة مقاومة ـ محتل، تصبح العلاقة مقاومة ـ «قوات عراقية»، وكأن الأمر سيتعلق بصراع من أجل احتكار العنف الشرعي (لتغيب صورة المحتل من الواجهة). تدبير أملته من جهة أولى عدم امكانية تحقق فرضيات حلول أخرى كأن يصبح العراق تحت سيادة أمنية مشتركة بين الدول الكبرى (كوندومنيوم أمني)، أو كمساهمة قوات الناتو، أو القوات الأممية. ومن جهة ثانية رهانات الظرفية السياسية في الولايات المتحدة (وهنا يمكن ادراج حكم اعدام الرئيس العراقي صدام حسين كمؤشر انجاز امريكي في العراق، وكعامل في تهيئة شروط التوتر بين الطوائف العراقية). ومن جهة ثالثة عجز القوات الامريكية الأكيد عن هزم المقاومة لأن الاجماع حاصل لدى المنظرين العسكريين والاستراتيجيين الامريكيين على ان الحروب الأسيمترية (غير المتماثلة)، كالتي في العراق الآن، لا يمكن حسمها عسكريا.

في الأخير يبدو ان الولايات المتحدة لحد الآن لم تربح استراتيجيا، لكنها أيضا لم تخسر، ما دام الرأي العام الأمريكي لم يتحرك بالقوة التي يمكن ان تدفع بقواته الى الانسحاب. والمقاومة العراقية هي التي بامكانها ان تجعل تحرك الرأي العام الأمريكي أمرا محتوما من خلال الخسائر التي تلحقها بالقوات الأمريكية. وليس ثمة شك في هذا... كما لم يكن الشك، منذ البداية، في ان المقاومة ستزداد حدة ما دام هناك احتلال في العراق.

* باحث من المغرب

الساحة اللبنانية بين زمجرة سياسييها ورعب مواطنيها

نهى المصري*

■ قيل: ان «خير الناس أنفعهم للناس» ونضيف: «خير الناس أعذرهم للناس».

وقد يصح هذا القول في المواقف الفردية، ولكن في القضايا الكبرى تختلف الحسبة تماما، والأدلة على ذلك كثيرة، على سبيل المثال؛ بل والحصر..! أي عذر يبرر للسيد حسن نصر الله الأمين العام لحزب الله اللبناني، القيام بعملية أسر الجنديين الاسرائيليين كخطوة غير محسوبة ـ كما أقر بنفسه لاحقا وان بشكل غير مباشر ـ والتي بمحصلتها دمرت اسرائيل الكثير في لبنان؟

وان استطعنا ايجاد المبررات الكافية لعملية الأسر، كما فعل الكثير منا، فأي عذر يبرر له محاولة الأسر الثانية ـ لو صح التعبير ـ والتي تستهدف بالدرجة الاولى القرارالسياسي في لبنان حصرا، لأغراض غير واضحة ولكنها حتما خطيرة؟

عملية الأسر الثانية والجارية على قدم وساق خطيرة بكل المقاييس، إذ أثبتت الحرب الأهلية في لبنان ان حرب «الغاء الآخر» هي حرب فاشلة بالضرورة، وأن لا بديل عن القبول بذاك الآخر، لا بل والتلاحم معه على قاعدة واحدة ومشتركة، وهي ما اصطلح على تسميتها «بالوطن»، لكي تصبح كل المذاهب والأديان جزءا من نسيج واحد أوحد بمعزل عن الرغبات والمشاعر، لأن الوطن لن يكون له وجود خارج هذه الفسيفساء، بل سيتحول الوطن الى دكان يباع ويشترى، وحتى لو أوحت الشعارات المطروحة في سوق الهاب المشاعر «الغوغائية» بغير ذلك..

الكل يعي اليوم أن لبنان يقف على كف عفريت «مرتبط بالخارج»، ومن الواضح ان «السيد حسن نصر الله» هو لاعب أساسي على الساحة اللبنانية «الطائفية» في هذه المرحلة على الأقل، ولكن على أي اساس؟

لعل الأساس يعود بالدرجة الأولى الى نشأة الحزب التي ارتبطت «بحركة أمل الشيعية» ابتداء ثم بمقاومة الاحتلال الاسرائيلي، مع العلم ان تاريخ المقاومة يعود الى ما قبل نشوء حزب الله، «وانشقاقه عن حركة أمل» بسنوات عديدة.

فقد استطاعت القضية الفلسطينية، ومنذ وقت مبكر استقطاب جهود وتعاطف العديد من القوى اليسارية والقومية والوطنية والدينية الفاعلة في لبنان، كالجماعة الاسلامية، والحزب الشيوعي، وقوات الانصار، والميليشيات التابعة للتنظيمات القومية المختلفة، من بعثيين وناصريين وقوميين سوريين، وحركة 24 تشرين، وقد ساندت هذه التشكيلات بشكل عام المقاومة الفلسطينية، الى أن تأسست بعد ذلك «أفواج المقاومة اللبنانية» المعروفة اختصارا «بحركة أمل» الشيعية عام 1975م.

وبالرغم من أن اندلاع الحرب الأهلية اللبنانية في نيسان (ابريل) عام 1975م، قد قام بتشتيت طاقات القوى الوطنية اللبنانية، غير أن الاجتياح الاسرائيلي للبنان عام 1978، والذي عرف بعملية الليطاني، جمع تلك القوى اللبنانية اليسارية والقومية والاسلامية من جديد، تحت مظلة المقاومة اللبنانية التي باتت أساس المقاومة التي خاضت المواجهة مع اسرائيل عام 1982 من خلال التحالف مع المقاتلين الفلسطينيين تحت مسمى «القوات المشتركة للثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية».

ولكن بعد حصار بيروت الغربية، وخروج قوات المقاومة الفلسطينية من لبنان، ثم احتلال بيروت، بعد ذلك تحولت المقاومة الى لبنانية صرفة، بل واتسعت دائرتها لتشمل الى جانب تلك القوى العديد من المتطوعين من كافة المناطق اللبنانية بمختلف مذاهبها، والمتطوعين من جنود وضباط في القوات الخاصة في الجيش اللبناني، الذين أصبحوا نواة القوة القتالية لجبهة المقاومة الوطنية اللبنانية، بل وبفضل عملياتها القتالية ـ التي لم تقتصر عملياتها الاستشهادية على فئة أو حزب معين من بين القوى الوطنية والاسلامية اللبنانية ـ التي اتخذت شكل حرب العصابات والتي استهدفت قوات الاحتلال من بيروت الى الجنوب، وأرغمت اسرائيل على الانسحاب من معظم الأراضي اللبنانية عام 1985 ثم استقرت قواتها المحتلة في الشريط الحدودي في أقصى الجنوب اللبناني بمواجهة المقاومة الوطنية اللبنانية.

أما حزب الله فتعود نشأته الى انقسام حصل داخل حركة أمل الشيعية «الطائفية»، وذلك سنة 1985، أي بعد ثلاث سنوات على انطلاق (المقاومة اللبنانية ـ الفلسطينية) ضد الاحتلال الاسرائيلي للبنان. وقد تمركز الخلاف (الشيعي الداخلي) حول المرجعية، اذ رأى القسم الأول أن المرجعية الشيعية للحركة يجب ان تكون من داخل لبنان، في حين دعا الجناح الآخر (حزب الله لاحقا) الى اتخاذ الخميني كمرجع أعلى للشيعة ليس فقط في لبنان بل في كل انحاء العالم، ثم تفاقمت الأزمة بعد الاجتياح الاسرائيلي لبيروت والانسحاب منها، فولد «حزب الله» الذي ارتبط بايران، وهذا واضح في بيانه الصادر في 16 شباط (فبراير) 1985، والذي جاء فيه: ان «الحزب ملتزم بأوامر قيادة حكيمة وعادلة تتجسد في ولاية الفقيه» وتم تجاهل مرجعية أغلب قادة «حزب الله» الذين كانوا يقلدون مرجعية النجف الشيعية العربية في العراق، وليس مرجعية «قم الفارسية» بدءا بموسى الصدر مؤسس «حركة أمل»، ومرورا بالشيخ «صبحي الطفيلي» أول أمين عام منتخب لحزب الله، وأمين الحزب عباس الموسوي الذي اغتالته طائرة اسرائيلية هو وزوجته وابنه، وكذلك كان السيد حسن نصر الله الامين العام الحالي، ثم أصبح ممثلا لخامنئي في لبنان.

لقد عمل حزب الله بعد تأسيسه في اطار جبهة المقاومة اللبنانية، قبل أن يتحول الى العمل منفردا، خصوصا أن منطقة الجنوب كانت بيئته الحاضنة ومركز قاعدته الجماهيرية.

وكان نظام الوصاية «السوري ـ الايراني» قد ساعد على تكريس دور حزب الله في لبنان دون غيره من القوى الوطنية التي كان لها دور فاعل في مقاومة الاحتلال منذ السبعينات، وذلك بتهميش تلك القوى، واحتوائها بعد استنزاف قدراتها، وتصفية رموزها الوطنية اللبنانية على مدى سنوات الحرب، وقد تكرس هذا الوضع بعد اتفاق الطائف عام 1990، والذي قضى بتجريد كل الميليشيات اللبنانية من أسلحتها باستثناء «حزب الله» الذي تعزز دوره باحتكاره لاعلام المقاومة، والسماح لبقية الفصائل بالعمل تحت مظلته على أن تذاع العمليات النوعية باسمه حصريا، وهكذا استغل الحزب في نهاية الأمر انسحاب اسرائيل في نيسان (ابريل) عام 2000 من الشريط الحدودي.

انسحبت اسرائيل من الشريط، ولكنها ما زالت في مزارع شبعا الواقعة على سفوح جبل الشيخ، واعتبرت ذلك باجراء وصف اسرائيلي بالعملية المهينة، فيما وصف اعلاميا عربيا ولبنانيا بالتحرير، الذي مكن «حزب الله» من الحصول على رصيد شعبي واسع ومكانة خاصة في لبنان وغيره، وهذه المكانة تكرست لحسن نصر الله عربيا بعد آخر حرب باعتباره النقيض للهزائم العربية السابقة، ولكن من الواضح انها لن تكون الحرب الأخيرة وذلك بسبب التعقيدات الاقليمية التي تشهدها المنطقة اليوم والتي بات واضحا أن لبنان سيكون ساحة للاعبين فيها سواء أكان ذلك بحكم جغرافيته التي اصبحت كاللعنة، أو بحكم تبعيات أقطابه السياسية المختلفة لعناصر هي بالأساس «مختلفة».

عندما يلتزم حزب الله «بأوامر قيادة حكيمة وعادلة تتجسد في ولاية الفقيه الايراني» علام يدل هذا بالضرورة؟

هذا يعني حكما أن علاقة حزب الله بايران أعمق وأخطر مما أشيع، وان الولاء عندما يرتبط بالعقيدة والدين والفكر عندها ستكون مسألة الأولويات محسومة حكما، خصوصا أن تجربة الحرب الأهلية السابقة علمتنا أن الوطن المعافى لا بد أن يكون هو نفسه أولوية الأولويات عند المواطنين.

أما فيما يختص بولاء حزب الله لسورية لا شك ان الأمر أعمق من احساس مفعم بالجميل لجهة راعية وداعمة، اذ بات واضحا أن هناك جملة من المصالح الاستراتيجية باتت تفرض نفسها اليوم على المنطقة لتشكيل محورا يشمل شيعة لبنان وسورية والعراق وايران وأفغانستان للوقوف أمام عدو باسمه ترتكب كل الحماقات ظاهرا ولكن الباطن غير ذلك تماما، ولا سيما أن تلك الفئات وحدت أهدافها عبر انضمام الرئيس الايراني الى قافلة الملوحين بالقضية الفلسطينية للتضليل ليس الا.

لقد استخدم أحمدي نجاد القضية الفلسطينية، بمنتهى البراعة حيث جاء خطابه السياسي مصهورا بصخب القوة وضجيجها ومثقلا بالمباشرة، وكأنه أراد أن يفتح الجرح القديم / الجديد ليقطف منه الدم الأطهر، ولكن ليس لمباركته بل ربما لتتبارك أجندته السياسية منه، وتزدهر كما يؤكد بعض المحللين ذلك...

كيف لا والقضية الفلسطينية هي نهر السياسيين العرب الذي لا ينضب، يستعينون بها عندما تجف ينابيع وعودهم، فتكشف مواقفهم الخادعة، ويدوسون عليها عندما يحين موعد الوفاء بالدين....

هذا التميز وبامتياز في استخدام القضية الفلسطينية كورقة رابحة وعلى الدوام لاطلاق القهر من عرينه ولو لبرهة، يطرح تساؤلا؛ وهو: علام تدل مواقف الرئيس الايراني وتصريحاته المختلفة اتجاه اسرائيل، وفي هذه المرحلة بالذات؟

وعلى من يعول الرئيس الايراني في ظل الشتات الذهني والنفسي الذي يعيشه العالم الاسلامي والعربي اليوم؟

هناك من يعتبر أن خطاب الرئيس الايراني بمفرداته الحادة يهدف بالدرجة الأولى الى اضفاء الشرعية على النتائج قبل الأفعال، وذلك عبر استخدامه عنوانا هو الوحيد القادر على شحذ همم البيادق، وتضليل الغوغاء حيث ما زالت الى اليوم شعارات القضية الفلسطينية هي السلعة الوحيدة المربحة والرائجة، لا سيما ان ثمن الوعد بالنصر هو الوحيد الذي يجد وعلى الدوام آلاف المتبرعين بدمائهم لاذكاء تلك الشعلة المرتبطة بحلم العودة، هذا الحلم ـ وان بات حكرا على فئة فلسطينية محددة بحكم ما يسمى باتفاقيات السلام ـ ما زال يمس وجدان ملايين المسلمين والعرب الذين وجدوا في هذا الوعد طموحا وربما مهربا من تعسف أنظمتهم السياسية، التي حرقت بقمعها كل الهمم والكرامات، فكانت النتيجة الهروب من ميادينهم الحقيقية الى الميدان الأكبر مع انه في الواقع ميدان يحتاج الى القليل من التهور والكثير من الحكمة والعطاء، فهل يمكن توفير شروط كهذه في جيل مغلول الأيدي ومبحوح الصوت؟ جيل لا يحمل في الذاكرة سوى طعم المرارة وبقايا انسان شوهه الخوف والخضوع للذل والهوان؟

لا شك ان الواقع مغموس بالمرارة، ولكن الأمر هو ان كل هذه التضحيات لم تستطع ان تزعزع او تخفف من استبداد تلك الأنظمة وفسادها قيد انملة.

ولست ادري هنا من انتج من.... هل ضاعت فلسطين لأننا كنا خائنين؟ أم أصبحنا خائنين لأننا لم نستطع ان نحافظ على طهارة القضية وعلى نبل أهدافها؟

مهما كان الجواب؛ الشيء الأكيد هو أننا وللأسف حولنا القضية الفلسطينية الى ملهى ليلي لا حضور في حلبته الا لأجساد ضلت الطريق خطاها، وتلوثت عقولها بسموم دعاة الحرية الذين أصبحوا كتجار الكيف، مسؤوليتهم تتوقف عند بيع المنتج بمعزل عن النتائج.

ألم يصبح مطلب «التضحية بالروح بالدم» دعوة مجانية، وثمنا باهظا يفرض على الأبرياء لكي يتحولوا الى قربان لآلهة لم يتم اختيارها بعد؟

من يعي منا ما يجري اليوم، فليرمني بالحقيقة، أو فليصطف قربي ليصبح شاهدا على جنون السلطة من أجل الثروة والعظمة، هذا الوباء الذي تفشى بين من كانت مشاعرنا وعقولنا تعول عليهم، فخيبوا رجاءنا وآمالنا.

جنون العظمة أم قوة العقل أم هوس السلطة والمال؟... أية قبعة بات يرتدي اليوم «السيد حسن نصر الله الأمين العام لحزب الله»، بعد نصره المفرقع واجندته غير الواضحة؟

أية قبعة يرتدي اليوم وهو يوزع املاءاته على حلفاء الأمس، وخصوم اليوم داخل الساحة اللبنانية؛ تلك القوى التي صبغت باللون الأمريكي ما دامت ضد الوصاية السورية ـ الايرانية على لبنان؟

بالرغم من أن أداء السياسيين اللبنانيين جملة وتفصيلا لا يعد بالخير، ورغم ان العقل الذي كنا نعول عليه وهو السيد حسن نصر الله «تحول الى ظله» بعد أن تغير أداؤه لاعتبارات لن ننتظر طويلا لمعرفتها، هناك فئة في لبنان اختارت وان بصمت الى الآن الطريق الثالث، وهو طريق واحد وجهته واحدة وهي لبنان ومصالح لبنان أولا وأخيرا والتي هي فوق كل المصالح والاعتبارات «الباطنة والظاهرة»، هذه الفئة ربما لو صنفت نفسها ستغير معادلة الاكثرية التي يتبجح الطرفان المتصارعان بامتلاكها، تلك الفئة قد لا تحتاج الى معجزة لتتوحد وتجتمع بل تحتاج الى تسجيل جملة من اللاءات وهي: لا للحرب الأهلية، لا لمصادرة القرار السياسي، لا للتبعية المذهبية والمصلحية، لا لعودة زمن الوصاية السورية، لا لأشباه السياسيين المحسوبين على لبنان رجالا، لا لجعل لبنان ممرا للمخططات الخارجية أو ميدانا لتصفية الحسابات المذهبية والدينية.

عندما نراعي كل تلك الاعتبارات قد ينضج صوت القانون لكي تصبح له الكلمة الطولى، ولكي يحمي القانون بدوره الوطن من الخراب الذي قد يتأتى مما تبقى من رجاحة في عقل البعض من كباره، وعندها قد تنتشل السلطة المرمية على قارعة الطريق من بين انياب قطاعها بعيدا عمن اصابه داء التكالب على ما تبقى منها.

وان كان الاتفاق على بقاء الوطن عصيا عليكم نعدكم باستئجار ساحة لكم لكي تمارسوا عليها نزعاتكم الطفولية لأن لبنان لن يعود مختبرا للتجارب ولن نكون فئرانا للتجارب اللاانسانية القذرة بعد اليوم.

* كاتبة من لبنان

المجرم اذ أصبح قاضيا!

جواد البشيتي*

■ قرار اعدام الرئيس العراقي صدام حسين «شنقا حتى الموت» لا يمكن فهمه وتفسيره، ولجهة وقت صدوره على وجه الخصوص، الا على أنه دليل قوي على ان ادارة الرئيس بوش ما عاد في مقدورها فعل أي شيء في العراق يمكنه ان ينتشلها، مع الولايات المتحدة، من ورطتها العسكرية ـ السياسية الاستراتيجية فيه، فاخفاقها العراقي الكبير هو الآن يلبس لبوس «الناخب الكبير»، ان لم يكن الأكبر؛ ولسوف يتمخض عن نتائج، في مجلسي النواب والشيوخ، تجعل الرئيس بوش أكثر عجزا من ذي قبل عن الهروب من وحش الهزيمة الذي يطارده، ويوشك ان يفترسه، مع كل الأوهام التي حملته على غزو واحتلال العراق، والتي لولا المقاومة العسكرية العراقية (العربية السنية في الجوهر والأساس وحتى الآن) لما ظهرت لنا، وللعالم بأسره، على أنها أوهام.

انني متأكد ان الابن قد قال لأبيه انه سيأتيه برأس صدام حسين ولو قبل ساعة من ولادة الهزيمة الكبرى للولايات المتحدة في العراق، فعائلة بوش، التي نجحت، والحق يقال، في ان تجعل الحماقة سيدا للبيت الأبيض، هي التي قررت، عبر «رؤوف رشيد عبد الرحمن»، اعدام الرئيس صدام حسين لتشفي غليلها منه!

قررت ذلك وهي تعلم علم اليقين ان قرارها لن ينزل الا بردا وسلاما على «الديمقراطيين»، الذين يعلمون هم أيضا علم اليقين ان كارثة ادارة الرئيس بوش في العراق أكبر وأعظم من ان يسمح قرار الاعدام للجمهوريين بأن يسيروا الرياح بما تشتهي سفينتهم الانتخابية والسياسية. ان الهزيمة الانتخابية للجمهوريين، انما هي أول الغيث العراقي، وتضرب جذورها عميقا في الهزيمة الاستراتيجية لادارة الرئيس بوش، وللولايات المتحدة في العراق، والتي لن يأتي قرار اعدام الرئيس صدام حسين الا بما يستجمع ويهيئ لها مزيدا من الأسباب، وان كنت أعتقد ان خير تلك الهزيمة الآتية لا محالة سيجيء مقترنا بشر حرب، أو حروب، أهلية عراقية، بعض بذورها بذرته الولايات المتحدة، وبعضه نمته فحسب.

«الدجيل»، أو ما شابهها من أعمال لردع «العدو الداخلي»، أو «العدو الداخلي ـ الخارجي»، لنظام حكم صدام حسين عن اظهار وممارسة مزيد من العداء كان ممكنا ان أراها كما رآها ضحاياها لو ان الذين قرروا اعدام الرئيس صدام حسين مثلوا عهدا جديدا في الحكم، فيه من الديمقراطية والانسانية، ومن قيمهما ومبادئهما، ما يجعل «الدجيل» وأخواتها، جزءا من ماضٍ انتهى الى غير رجعة؛ أما ان يأتي عهدهم بجرائم تجعل الجرائم التي اتهموا عهد صدام حسين بارتكابها قطرة في بحر جرائمهم، وجرائم أسيادهم، التي لسيد البيت الأبيض حصة الأسد منها، فهذا انما يدعوني الى ان أفهم عهد صدام حسين بحسب نسبية الخير والشر، وان أراه، بفضل جرائمهم، عهدا للرحمة والخير، يشتد حنين العراق والعراقيين اليه، وكأن الرئيس بوش لم يعلن حرب الخير على الشر الا ليظهر، عبرها، وبتأكد أنه اله الشر في الألفية الثالثة.

صدام الذي قرر بوش اعدامه ليس هو ذاته صدام الذي كان يحكم العراق، الذي بفضل الولايات المتحدة و«الديمقراطية» التي جاءت بها اليه على أسنة رماح «المارينز» أصبح مكانا لا يصلح لحياة البشر وتنهب أرضه وشعبه «حرب الكل ضد الكل».

ان اعدام صدام في «عراق اليوم» لا يقرره الا من اختار للعراقيين مزيدا من تبادل العداء الذي في دوافعه ونتائجه عداء للعراق الذي يحتاج اليه العراقيون والعرب، فالولايات المتحدة خلقت عراقا جعل غالبية العرب يرون في صدام حسين رمزا لـ «كرامة عربية قومية ـ سنية»، وكأن حماقة سياسة سيد البيت الأبيض تزين له اعدام كل ما بقي من أوجه وحدة بين عرب العراق وأكراده، بين الشيعة والسنة من عربه، عبر اعدام صدام حسين، فالشيعة من عرب وفرس والأكراد ظهروا، أو أظهروا، على أنهم مع قرار الاعدام؛ والسنة من عرب العراق، ومن العرب عموما، ظهروا، أو أظهروا، على أنهم ضد هذا القرار.

انها حماقة المهزوم لا محالة هي التي قررت اعدام صدام حسين، وكأن ادارة الرئيس بوش تريد لهذا القرار ان يشعل فتيل حرب عراقية أهلية، لعل دخانها يحجب الرؤية.. رؤية العالم لهزيمتها الكبرى في العراق.

لقد خلقوا لنا من الصراع والعصبية في العراق ما يجعل قرار اعدام صدام حسين، الذي اتخذه كبير المجرمين في العالم، وقودا لحرب تنتهي بهزيمتين: هزيمة الولايات المتحدة، وهزيمة «القومية الديمقراطية العربية»، التي لن تقع في العراق الا لتعبر حدوده العربية.

ولو كان للوعي القومي الديمقراطي العربي من قوى حقيقية تسنده في العراق، وفي العالم العربي عموما، لرأينا موقفا عراقيا وعربيا من قرار الاعدام يسمح لـ «القومية الديمقراطية العربية» بأن تتولى هي مبادلة الولايات المتحدة عداء بعداء، فلا تهزم القوة الامبريالية العظمى في العالم في العراق الا لتكون، أو لتصبح، هزيمتها نصرا قوميا وديمقراطيا للعرب، بدءا بالعراق.

اذا كان لا بد من اعدام صدام حسين «شنقا حتى الموت» فليعدم على أيد انتهت توا من اعدام كبير المجرمين الدوليين، واعدام كل من نصب المشانق للحق القومي والديمقراطي للأمة العربية، وزرع فيها، أو نمى، كل عصبية كريهة ومنافية لوحدتها القومية الديمقراطية.

* كاتب ومحلل سياسي فلسطيني ـ الاردن

إعدام صدام ومكر التاريخ

عبدالعزيز محمد الخاطر *

■ لفظ اعدام لا يخيف في بغداد، ربما كلمة الحياة أكثر غرابة. هنا الموت رائحة مستمرة ومشهد مستمر يكاد يكون غيابه هو الاستثناء. الحاكم في بغداد على موعد مع الموت دائماً. لم يتوقع صدام كلمة غير ما نطق به القاضي، التاريخ في منطقتنا وفي بغداد دائماً يضع ارادة الحياة في مقابل الموت للآخرين، ولم يشذ صدام عن اقرانه كثيراً وأنما كان أسوأهم حظاً. كان في حياته استثناء لأنه صنع احداثا استثنائية ويتعدى بعضها نطاق المعقول وفي مواجهة مصيره كان كذلك استثناء. جميل أن ينتقم المظلوم من الظالم في حياته وجميل لو أن الآخرين يتمثلون نهاية الظلم والبطش ولكن القبيح أن يحاكم الحدث ويترك التاريخ، أن يعدم المستبد وتترك آلية انتاجه مستمرة، كان الوضع سيبدو بشكل آخر لو أن ظلال الديمقراطية الموعودة كانت ترفرف على بغداد ساعة اعلان الحكم كان سيبدو كذلك نموذجاً يحتذى ويخيف قلاع الاستبداد في كل عاصمة عربية، كان الوضع سيبدو أكثر جمالاً واشراقا لو أن العراقيين هم من اصدر الحكم من ألفه الى يائه.

كان الوضع سيبدو مثالاً للتفاؤل والخروج من نفق الظلم والاستبداد لو ان الشارع العراقي لم تدنسه يد التدخلات الخارجية من كل صوب ولم تنتشر فيه رائحة الطائفية والمذهبية بشكل لم يسبق له في التاريخ. على مر التاريخ لم يكن للديمقراطية التي يريد الأمريكان زرعها في العراق نافذة تطل منها على نهر دجلة فهو لم يكن استثناءً بهذا المعنى وعلى مر التاريخ.

لم تكن بغداد مطواعة لضعفاء البأس وقليلي الحيلة. صدام اخطأ وارتكب الكثير من الحماقات والجرائم ولكن التاريخ يخبرنا بأن حقبة الجرائم والآثام دائماً تتلوها حقب أخرى مغايرة لا يعود فيها مكان لتلك الجرائم والآثام، لم يخبرنا التاريخ اطلاقا بأن حقبه الجرائم تحاكمها حقبه أخرى مماثله. الدم اليوم في بغداد أكثر استباحة والأمن أُمنية كل عراقي والدين أشتات والعراق عراقات، كيف يحاكم فصل والمسرحية مستمرة!

ثنائية الجلاد والضحية ثنائية مستمرة عبر تاريخنا الطويل لم يتغير الجلاد العربي ولم يغير من أدواته كما حدث لدى الغير لا يزال فر